

المعز بن باديس والفاطميون

تتقدم (الزهراء) الى قرائها هذا الفصل من محاضرة جلية ألناها باللغة الاوردية في جمعية الشرقيين بمدينة لاهور (الهند) - حضرة العالم المحقق أبو البركات عبد المعز الميمني الراجكوتي - الأستاذ بالكلية الشرقية في لاهور - وسيتلوه فصل آخر من مملكة القيروان في عهد المعز بن باديس وحضارتها وعلاقتي المعز مع ابن رشيقي . وكان أثناء هذه المحاضرة بمناسبة اشتغال الاساذ صاحبها بجمع أشتار ابن رشيقي وزميله ابن شرف القيروانيين في كتاب سيصدر من مطبعتنا عما قريب باسم (النتنف من اشتار ابن رشيقي وابن شرف)

وقد اقترح مفتي (الزهراء) على حضرة الأستاذ صاحب المحاضرة أن ينقلها الى العربية بنقله البليغ ، فتكرم - حضرتي بتايية هذا الطالب تعبها لها بين الناطقين بالعناد

أُولِيَّةُ الْمُعَزِّ

لما فتح جوهر قائد المعز الفاطمي مصر في بدء القرن الرابع الهجري دعا مولاه المعز لينمكن على سرر مصر والشام . ففكر المعز فيمن يوليّه بعده على إفريقية فلم ير له كفؤاً إلا بُلُكَيْنَ بن زِيْرِي بن مَيَّاد^(١) الصنهاجي ، وصنهاجة كانوا أعوان الفاطميين . فاستخلفه ودعاه أبا الفتح سيف الدولة يوسف . ثم توالى منصور وباديس الى أن توفى هذا الأخير سنة ٤٠٦ هـ فجاءه وهو في معسكره ناثم بين أصحابه . فبُوع المعز ابنه وهو إذ ذاك^(٢) ابن ثمانية أعوام وقيل وستة أشهر وقيل بل ابن إحدى عشرة سنة

المعز بن باديس

لم يُعرف له غير هذا الاسم . ولد سنة ٣٩٨ هـ بالنصورية (صبرة) وبملك بعد وفاة أبيه بالمحمدية (المسيلة) . ققام بأعباء الملك أحسن قيام . وأفرغه في قالب النظام . وأراح نفسه من المدعين للملك من عشيرته الأدينين . إلا أن طوائف البربر لم تُخَلِّه ينعم بالأمان عادتهم بأسلافه . فكانت تخرج عليه وتنهب القرص .

(١) كلما في صبح الاعشى ٥ : ١٢٤ وفي غيره ابن مناد

(٢) راجع ابن خلكان والكامل وابن خلدون

فثارت طوائف زناة سنة ٤١١ و ٤١٥ و ٤٢٠ و ٤٢٧ و ٤٢٨ و ٤٢٩ هـ الى غيرها وآل حماد سنة ٤٣٣ هـ ولكن الحظ كان قرين المعز فزهمهم وأخذ ثورتهم وكف من غربهم فهابته الطوائف . وتزلزلت اليه بالحنائف . ولم يبق بأهات بلاد إفريقية من يساجله في الرئاسة . قال ابن خلدون (٦ : ١٥٩) :

« وكانت بينه وبين زناة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو

مذكور »

وكان ^(١) رقيقاً رقيقاً . سمحاً جواداً محباً للعلم وحاميه . متجنباً لسفك الدماء . حليماً حسن الصحبة والعشرة . لئيم الجانب للأوداء . خشيته للأعداء . ملك من بركة الى فاس وسكن الثوار بإيئاس منه وإياس . وكان يخضع لأحكام الشرع كما يؤخذ من عدة تراجم في معالم الايمان (٣ : ١٧٦ و ٢٠٩) ولم يكن من الفنون اللطيفة خلواً وله شعر وإن لم تقف عليه (الوفيات ٢ : ١٠٥)

وقتل صاحب البدائع من أبكار الأفكار لابن شرف أنه اقترح على شاعرى حضرته أن يصفها شعراً لطيفاً على أسوق بعض نساته فكان مما قاله ابن رشيق :

يعيبون بلفيسية أن رأوا بها كما قدرأى من تلك من نصب الصرحا
فانتقد المعز عليه بقوله « أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه » وهذا النقد الصائب دليل على ذهنه الثاقب

وكان المعز واسطة عقد آل زيرى بل ملوك إفريقية وبيت قصيدهم

قال ابن خلدون (٦ : ١٥٨) :

« كان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترقه وأبدخه »

واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب امهاغيل

(١) ابن خلدون ٦ : ١٥٨ والكمال ١٠ : ٦ والوفيات ٢ : ١٠٥

ابن عَبَّاد وكانوا يُدِينون على مائة شاعر على ما زعم صاحب البساط (ص ٥١) وذكر أكثرهم ابنُ رَشِيقِ في (أنوذج الزمان في شعراء قيروان) وسير بك سرِّد أسماه من عثرنا على ترجمته منهم

وهالك بعض أمثلة شهامته وبُعد صيته . قال ابن الأثير ^(١) :

وهب مرة مائة ألف درهم للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال فاستكثره فأمر به فأفرغ بين يديه ثم وهبه له . فقيل له لِمَ أمرت بإخراجه من أوعيته . قال لئلا يقال لو رآه ماسمحت نفسه به

وقال ابن خلدون :

نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والمهدايا والنجائز ^(٢) والأعطيات ما يشهد بذلك . مثل ما ذكر أن عطية صندل ^(٣) عامل باعانة مائة حمل من المال . وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندي بمسامير الذهب . وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتي ثلثين حملاً من المال وثمانين قمحاً . وأن أعرار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين ألف قفيز

وقال أيضاً قبله بقليل :

ووصل زاوي بن زيري (صاحب غرناطة) من الاندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه في خبره فتلّقاه المعز أعظم لقاء وسلّم عليه راجلاً وفرشت القصور لترّله ووصله بأعظم الصلات وأرفعها

وقال ابن خلكان ^(٤) :

وكان الحاكم صاحب مصر قد لقّبه شرف الدولة وسير له تشریفاً وسجلاً يتضمن اللقب المذكور وذلك في ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة

(١) ٦ : ١٠ (٢) كذا ونسخة ابن خلدون (٦ : ١٥٨) مصحفة ولعل صوابه الجناز > (٣) كذا وانظر (٤) ٢ : ١٠٤ والبساط ٤٢

وتزلفت له الملوك بالهدايا والتحف ابتغاء مهادته . فمن ذلك هدية أتت من مصر على ما قال ابن رشيق ^(١) أو من السودان على ما قال صاحب البساط ^(٢) أو هذه غير تلك وفيها زرافة وصفها ابن رشيق في همزية (وهي في النُتف) . ووفود ^(٣) أرسلها ملك الروم سنة ٤٢٦ هـ معها هدية خطيرة قبلها بقصره في صبرة وردّها بما يناسب حالها وحاله . وفي الكامل ^(٤) أنه أرسل إلى جزائر القسطنطينية أسطولا وجنّزها فرجعت منصوراً غاتمة . إلى غير ذلك من الأخبار ولم نعرض لها إذ لم يكن إلا كنار من غرضنا في الباب

غلو الفاطميين في بثّ دعوتهم

اعلم أن القاضي أسد بن الفرات فاتح صقلية والامام سحنونا لما صنفا الأسمية والمدونة كان المذهب المنفي بعد نشره لواءه وماداً خبائه على تلك الأرجاء . إلا أن خطوته جعلت تنهقر بعد تصنيفها إلى وراء ونباهته إلى اتزواء . ثم أن الفاطميين بثوا دعوتهم ونشروا كلمتهم ولم يكتفوا بالجائز حتى جاوزوا الحد وارتكبوا كل فظيعة شنيعة . وأظهروا أن ليس غرضهم إلا ردّ الأمر إلى أهل البيت والولاء لهم والتفاني في اصطفاؤهم إلا أنهم أضروا ما يباينه فجمعوا يخذعون العوام والسذج ويستخفون بالشرية وأحكامها وعلماؤها وكبار رجالها ويسبون الصحابة جهاراً ولا يخافون بلومة لائم ولا نهى تاه ويتصرفون في أوامر الشريعة ونواهيها فعل عزيز مقتدر ويستشتررون بالمعاصي ويؤذون علماء الدين وخيرة العالمين . ثم أعادوا أعمالهم الشنيعة بمصر والشام وأصروا على الآصار والآثام . إلا أن أهل هاتين المملكتين لم يكن عندهما بلاء ولا غناء ولا مراس ولا لقاء فلم يصابوا فتيلاً ولا رزوا شيئاً . ولكن أهل إفريقية والمغرب كانوا بمكسهم

(١) المدة ٢ : ٢٢٨ (٢) ٤٣ (٣) البساط ٤٤ (٤) ٩ : ٢٢٥

من النجدة والبأس وقوة المراس وشدة الشكيمة . آتفين من الضم والمضمية -
نقل الدباغ^(١) في سبب قتل عروس المؤذن المتعبدة الشهيد أنه كان يؤذن في
مسجد عباس الفقيه صاحب سخنون فشهد عليه بعض المشاركة^(٢) أنه لم يقل في
أذانه « حيّ على خير العمل » فقطع لسانه^(٣) وسُئل بين عينيه ورطيف به
القبروان ثم قتل بالمرضاخ . وكذلك نقل^(٤) أيضاً (وأنكر ابن ناجي وجوده
في المعالم) ما وقع في عهد أبي المعز قال انهم بعد فتحهم مصر والشام « بسوا
دُعائهم إلى إفريقية يدعون الناس إلى مذهبهم الفاسد ويُجبرونهم عليه فلم يُجيبهم
أحد إلى ذلك من أهل القبروان وأنه قدم مرة^(٥) داعٍ لهم في أيام باديس بن
المنصور وأخذ الناس بالهتف والغلظة . وانهم ظفروا ببعض رُسل هذا الداعي
فقتلوه اه . فهذا وأمثاله أثار العوام عليهم . وبفضهم لهم . إذ لم يكونوا كهمل
النعام . ولا بيضة الأنعام . يسير بها الراعي العبيدي حيث يشاء . وبسومهم خُطّة
العسف وسفك الدماء . فانتقموا منهم في دولة المعز وأبيه وأصابوا النار المُنيم
بل أسرفوا وما سددوا ولا قابروا فقتلهم اشنع قتلة وفتكوا بهم فتكة البرّاض
ولم يراعوا حدود الله ولا وقفوا دونها فقتل بعضهم وأجلى آخرون إلى صقلية

المعز والمشاركة (الفاطميون)

لم يكن في المعز من التأليف والملاطفة والمداهنة والمشاركة ما كان في أسلافه
فكان يجمعهم بدمتهم تارة ويصرّح أخرى ويتبرأ منهم إلى العوام وعلماء الدين
وكانوا بحيث ذكرنا ينطوون منهم على دمنة كائنة ودخلة مُزعجة فصدّوا كل
هذا غمًا ووسيلة إلى قلع غرسهم واستئصال شاقهم . قال ابن الأثير^(٦) مامنه :

(١) معالم الايمان ٣ : ٢ (٢) كان أهل المغرب يدعون الفاطميين بالمشاركة لان حبيد
الله الشيعي . وُتس دعوتهم أناهم من الشرق (٣) وفي الاصل وحمل كذا ؟
(٤) المعالم ١ : ٢٤ (٥) وفي الاصل مدة (٦) ٩ : ١٢٢

لما اجتاز موكب المعز بالقيروان سنة ٤٠٧ هـ رأى دهاء الناس مجتمعين فقال عن سبب اجتماعهم فقالوا للمعز أني بكر وعمر (رض) فأجاب « رضى الله عنهما ». فكان نرضيته هذه كانت أمراً للعوام فضربوهم حيث وجدواهم . وقال ابن خلدون ^(١) ما لفظه : « وكان المعز منحرفاً عن مذاهب ارافضة ومتحيزاً للسنة فأعلن بذهبه لأول ولايته ولعن ارافضة ثم صار الى قتل من وجد منهم . وكما به فرسه ذات يوم فتأدى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر فسمعت العامة فثاروا حينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل وقتل دعة ارافضة يومئذاه . وقال ابن ناجي ^(٢) ماملخصه : ان المعز لما قدم القيروان بعد موت أبيه واستفتح ولايته عام ٤٠٧ قتل العامة ارافضة أقبح قتل وحرقتهم وانهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم وجرحوهم بالأرجل وكانت صيحة من الله سلطها عليهم وخرج الأمر من القيروان الى المهديّة وسائر بلادهم قتلوا حيث وجدوا الى آخر ما سرده من أنواع القتل والمثلة » ثم قال وما تقدم من قولنا « خرج الأمر من القيروان الى المهديّة وسائر بلادهم » خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل البرزالي أن الوقت الذي قام عليهم فيه أهل القيروان قام كل شيخ على من في بلده كالشيخ تحريز على أهل تونس من غير أن يكون اتفاق منهم على ذلك بل هي كرامة في حق جميعهم اه يريد أن قتل أهل كل بلدة من فيها من الشيعة في آن واحد لم يكن عن تواطؤ منهم على ذلك سابق بل هو كشف . أقول وهكذا يقول العوام في ثورة الهند الشهيرة سنة ١٨٥٧ م وما أشدّ وآلم المتأخرين بالكاشفات والخورق ومدعى المتصوفة فإن سلفهم - والتاريخ شاهد على ما أقول - لم يكونوا كذلك ولا نبذوا الاسباب والعلل الكونية نبتة هؤلاء النواة . ولم يكونوا أقل منهم رعاية للدين ولا خشية لله . وأهل المغرب أولهم بالطلّسات والموذ والرقي والشيوخ الكاذبين

الفاطمين هدايا الله وإياهم الى سواء الصراط . وهذه بعض كرامات سردها ابن ناجي ^(١) في ترجمة أبي يوسف الدهماني : إخباره بالفتيات مراراً ، طيرانه في الهواء ، إقامته مُقْعِداً ، دَوْران البيت ، أمره بطرح القمح في البحر مع أنهم لما قَشَّوْا عنه وجدوه وافيّاً لم ينقص حَبَّةً ، جعل الماء حيتاناً ، جعل الرَّمْلَ ذَهَباً . الى غير ذلك من الهوسات ، والدعاوى الكاذبات . عصم الله عباده عن حبائل هؤلاء الاغمار القائدي المسلمين الى البوار

ومع هذا كله وصلته من الحاكم الفاطمي في هذا العام الهدايا الثمينة . كأنه لو اكتفى بما فعل لم يَبْهَجْ كامن حقد الفاطميين ولم يُبَيِّرْ دواعي الانتقام . والحق أن فتوح المعز المتوالية وانتصاراته المتوالية نبَّطت من عزائم أعدائه وكفَّت من غربهم سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها فأخذوا يستعطفونه ويستيلونهم ودلفوا له بالتحائف الناطقة . فكان هذا من إحدى البواعث على انحراف طبعه وغريزته . ونبذه الفكر في العواقب وراءه ظهرياً كما سيأتي

قال ابن خلكان ^(٢) وفي سنة تسع ^(٣) قُطِعَ اسْمُهُ (المستنصر) واسم آبائه من الحرميين الشريفين وذُكِرَ اسم المقتدى خليفة بغداد . فكان هذا وأمثاله من الأمور داعياً له على أخذ النار منهم والاستبداد . قَطَعَ الدعاء لهم وكان جارياً من أيام المهدي عبيد الله بأفريقية سنة ٤٣٥ هـ كما قال ابن الأثير ومؤرخو القيروان أو سنة ٤٤٠ هـ كما قال ابن خلدون (إلا أن إحدى سني ابن خلكان أعني سنة ٤٤٣ هـ لا أجده له وجهاً) وأحرق بتود المستنصر ومحا اسمه من الطُرُر واليَسَكَّة ودعا للقائم ابن القادر ووافاه خطابه وكتاب عهدِه صحبة داعيته أبي الفضل الدارمي الوزير وسيأتي ذكره مع خِلْعَ سنية وجوائز بيهية وسيف مرصع وعدة أعلام . وهذه صورة التولية ^(١) :

(١) ٣ : ٢٦٥ — ٢٧٠ (٢) ٢ : ١٠٣ (٣) وفي العبارة ما يوهم بأن يكون

وقوع هذا سنة ٤١٩ هـ راجع ابن خلكان (٤) الكامل ٩ : ٢١٧

من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين الى
الملك الأوحديقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الأنام ناصر دين
الله قاهر أعداء الله مؤيد سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
أبي نعيم المعز بن باديس بن منصور ولي أمير المؤمنين بولاية جميع
المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين . . الخ

والمعجب من تخليط ابن الأثير حيث قال في موضع آخر ^(١) ان ذلك جرى
سنه ٤٤٠ هـ فانظر فبأي قوليه نأخذ وعلى أيهما نؤول . وان كان هذا الأخير له
شاهد في العالم ^(٢) ولفظه في ترجمة محمد بن جعفر الكوفي قاضي صيرة « كان
فصيحا لسانا سديا مبانيا لأهل البدع شديدا عليهم ولما أمر المعز بن باديس بلعنة
عبيد الله في الخطب وذلك في يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة خطب
هذا القاضي فقال بعد ذكر ما جرت العادة به في خطبة الفطر: اللهم والعن الفسقة
الكفار المرائين الفجار أعداء الدين وأنصار الشياطين الخالفين لأمرك والناقضين
لمهدك المتبعين غير سبيلك والمبدلين لكتابك الخ . فأمر السلطان خطيب جامع
القيروان أن يفعل مثل ذلك على المنبر في الجمع في كل خطبة » اهـ . أقول ولم يصرح
باسم عبيد الله أو خلفائه فليعلم

وجملة القول أن الحاكم المتوحد له كان قد توفي وخلفه المستنصر وكان أبي
الضيم والهضم فتعمر وجهه وامتنع ونحرق وكتب الى المعز يؤعده فأجابه المعز
يمثل كتابه وأظهر انكم لم تنالوا ما نلتهم من الملك الا بمونة آباءى . وان كانت جملة
هذه لم تجانب الصواب لأن عبيد الله كان أتى من المشرق وكان أنصاره قبائل
صنهاجة من البربر وهم إخوان المعز وعشيرته إلا أنها لم تخرج عن قلب عقول
ولسان شكور ونظر في عواقب الأمور . والذي زاد ضغنا على إباباته والطين بلة أنه

نام نومة عبود ولم يجهز الدعة أو العديد ولا استسلمهم أو استسلمهم . وأما المستنصر
فانه استوزر الحسن البازورى وكان جاهلاً غمراً ، يحمل من المزم بين ضلوعه غمراً .
وكان المزم يخاطب الوزراء الماضين « بعبده » فكتب اليه « صنيعة » فاغتاظ
واستاء ودبر له مكيدة الأسواء وقوى عزيمة المستنصر على الايقاع به والزحف
اليه على ما سيأتى

ضعف قوة المزم

قال النويرى فى نهاية الأرب ^(١) « سار جماعة من أهل صقلية الى المزم بن
باديس وأعلموه بما حل بهم وقالوا نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا الجزيرة
الى الروم وذلك فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة . فوجه المزم ولده عبد الله الى
صقلية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومنلهم رجال فار الى الجزيرة ووقت بينه
وبين الاكحل (أحمد صاحب صقلية) حروب وحاصره فى قصره بالخالصة ثم
اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الاكحل قتلته الذين أحضروا عبد الله
بن المزم غدرًا . ثم رجع بعض الصقليين عن (كذا) بعض وندموا على إدخال
عبد الله الى الجزيرة واجتمعوا على حربه وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقتل منهم
نحو ثلثمائة رجل ورجعوا الى المراكب الى إفريقية اه . وقال بعبده بنحو صفحتين
بعد ما ذكر تغلب رنجر الأفرنجي صاحب مالطة على عامة مدائن صقلية « ففارق
الجزيرة كثير من العلماء والصالحين وسار جماعة من أهل صقلية الى المزم بن باديس
وذكروا له ما الناس فيه بلجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها فعمّر
أسطولا كثيراً ^(٢) (كذا ولله كبيراً) وشحنه بالرجال والممد وكان الزمان شتاء
فساروا الى قوصرة فهاج البحر عليهم ففرق أكثرهم ولم ينج إلا القليل وكان

(١) مجموعة أنارى فى توابخ صقلية ص ٤٤٥

(٢) كان فيها أربع مائة مركب على قول ابن الأثير

ذهاب هذا الاسطول مما أضعف المعز بن باديس وقوى العرب عليه حتى أخذوا البلاد منه اه . . وإني لأعجب من ابن الأثير كيف خلط بين الحادثتين قال في حوادث سنة ٤١٦ هـ ^(١) أن المعز جهز اسطولا الى صقلية لاستنقاذها من أيدي الروم ولكنها غرقت بما فيها قرب جزيرة قوصرة بعد كيت وذيت . ثم قال بعده بكثير ^(٢) وأخذ في بدء تاريخ مسلمي صقلية تحت حوادث سنة ٤٨٤ هـ أن ابن الحواس (أو الجواس) صاحب صقلية لما هزم عساكر ابن النخعة (الخارج عليه) سار هذا الى رجاء يستنجده ليملكه عليها فسار في رجب ٤٤٤ هـ بجنوده وقبض على أكثر البلاد وهزم ابن الحواس وسار جماعة من أهل صقلية الى المعز بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج الى آخر قول ابن فضل الله حتى أخذوا البلاد منه حرقاً عرقاً . وهل هذا إلا تناقض شنيع وتخليط قبيح ولقد صدق من قال المكثار مهزار . فكان هذا وأمثاله على ما صرح به المعري وابن الأثير مما أضعف قوى المعز وجراً عرب مصر وشذاذ الخوارج عليه وهم صرح بحجده الرفيع ، وعزّه المنيع . فصار خراب القيروان مؤدياً الى سائر إفريقية وصقلية بل الى المغرب بأسره

من وصايا الكندي الفيلسوف :

العاقل يظن أن فوق علمه علماً ، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة . والجاهل يظن أنه قد تنهى فتمقته النفوس لذلك
ومن شعره :

وعند مليك قابغ العلو وبالوحدة اليوم فاستأنس
وان الغنى في قلوب الرجال وان التمزق بالانفس
وكائن ترى من أخي عسرة غني وذو ثروة مفلس